

الأوضاع السياسية في نجد عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في مذكرات البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م

إعداد وترجمة : د . عوض بن عطا البادي *

قراءة وتعليق : د . عويضة بن متيريك الجهني **

تقديم

شهدت الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي توافد عدد كبير من الرحالة والمستشرقين والمبعوثين الدبلوماسيين إليها من مختلف المشارب والاتجاهات ، ولأهداف مختلفة ؛ قدم هؤلاء وكل حسب الهدف الذي أتى من أجله ، الكثير من المعلومات التي حصلوا عليها في تجوالهم عبر المناطق المختلفة للجزيرة العربية عن شؤون وأوضاع هذه الجزيرة المجهولة : إما في كتب

* بكالوريوس علوم سياسية ، جامعة الملك سعود ١٤٠٢هـ .
- ماجستير شؤون دولية ، الجامعة الأمريكية ، واشنطن ١٩٨٦م .
- دكتوراه في تاريخ العلاقات الدولية والسياسة الخارجية ، جامعة ماريلاند ، وأكاديمية العلوم الروسية ، ١٩٩٨م .
- عضو هيئة التدريس بمعهد الدراسات الدبلوماسية ، وزارة الخارجية ، الرياض .

** بكالوريوس لغة إنجليزية وتاريخ من جامعة الملك سعود ١٣٩٣هـ .
- ماجستير في التاريخ من جامعة واشنطن في سياتل بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٧٧م .
- دكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة واشنطن في سياتل الولايات المتحدة الأمريكية ١٤٠٣هـ .
- يعمل حالياً أستاذاً مساعداً في قسم التاريخ في جامعة الملك سعود بالرياض .

أصدروها ، أو بتقديم تقارير خاصة إلى الذين مولوا رحلاتهم عما شاهدوه وسمعوه ، تتفاوت القيمة العلمية لما كتبه هؤلاء وما قدموه من معلومات ، من رحالة أو مبعوث إلى آخر ، إلا أن ما تم تقديمه بقي وسيبقى مادة أولية لا غنى عنها لأي باحث في تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، في غياب الوثائق والسجلات المحلية الخاصة بالمراحل التي تناولوها .

نال بعض هؤلاء الرحالة والمندوبين شهرة واسعة في الأوساط العلمية والسياسية والشعبية ، حتى إن كتاباتهم ومعلوماتهم وقصص مغامراتهم هي التي اعتمدت عليها التصورات والتحليلات الغربية عن المنطقة وشعبها ماضياً وحاضراً . إن أكثر الكتابات حول شؤون الجزيرة العربية التي حققت هذه الشهرة هي تلك التي كتبت باللغة الإنجليزية ، والتي "ترجم" بعضها جزئياً أو كلياً إلى اللغة العربية . تعود هذه الشهرة والهيمنة لهذه الكتابات إلى انتشار اللغة الإنجليزية عالمياً ، وارتباط هذه اللغة ماضياً بالإمبراطورية البريطانية التي هيمنت على مناطق كثيرة من أركان المعمورة ، ولارتباط هذه الكتابات بمصالح وأهداف وسياسات بريطانيا العظمى في المنطقة ، وللاهتمام الذي أولته المؤسسات الجغرافية والعلمية في الغرب لمثل هذه الكتابات .

لا يعني ما سبق ذكره عدم وجود رحالة ومستشرقين ومبعوثين غربيين آخرين زاروا المنطقة ، وكتبوا انطباعاتهم ، وأضافوا معلومات جديدة لما كُتب باللغة الإنجليزية ، بل نقول إن الاهتمام والإشهار قد تركز على جزء واحد من أدبيات الرحلات والاستشراق على الرغم من أهمية بقية هذه الأدبيات وتميز المعلومات الواردة بها . وأن هناك حاجة ماسة للالتفات إلى ما قدمه هؤلاء ؛ على سبيل المثال ما كتبه الرحالة والمستشرقون والدبلوماسيون باللغة الألمانية

والفرنسية والروسية وغيرها حول شؤون الجزيرة العربية خلال القرن الماضي لما تحتويه من معلومات ذات قيمة علمية مهمة .

لتوضيح هذا الأمر سأقدم قصتي مع البارون إدوارد نولده ، هذا الرحالة والمبعوث الرسمي السري لروسيا القيصرية إلى أمير حائل محمد بن رشيد ، الذي كان يحكم كامل منطقة نجد في حينه ، عام ١٨٩٣ م .

هذه القصة يمكن إيجازها بأني خلال عملية بحث شاقة ومضنية لجمع ما كُتب عن التاريخ السياسي لشمال الجزيرة العربية، وصلت إلى نتيجة هي أنه لا يمكن تقديم تصور كامل عن وضع تلك المنطقة خلال القرن الماضي وبدايات هذا القرن، بدون معرفة جميع ما كتبه الرحالة الغربيون الذين زاروها . وبعد عملية مسح شاملة وجمع لكامل ما كُتب باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والقيام بترجمة ذلك إما شخصياً أو بالاستعانة بترجمين متخصصين : تبين لي أهمية ما قدمه هؤلاء الرحالة الذين تجاوز عددهم الخمسة عشر ومنهم العالم ، والتاجر، والجاسوس، والسائح، والمبشر في الفترة ما بين عام ١٢٢٣ - ١٣٤١هـ/ ١٨٠٨ - ١٩٢٢ م .. لقد كانت المعلومات التي احتوتها هذه الكتابات من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن لأي باحث أو كاتب تجاهل هذه المعلومات ، أو حتى كتابة أي شيء له قيمة تاريخية دون معرفتها ^(١) .

كان اسم البارون إدوارد نولده Baron Eduard Nolde هو الأقل تردداً بين هؤلاء الرحالة في عملية المسح ، وحتى إذا أتى ذكره جاء مقتضباً بدون توضيح لما قاله أو كتبه ، وكثير من الكتب التي تناولت أدب الرحلات باللغات

(١) انظر حول ذلك : د . عوض البادي . الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية : منطقة الجوف ووادي السرحان ، الرياض : دار بلاد العرب للنشر ، ١٩٩٧م

الإنجليزية والفرنسية والعربية لم تذكر اسمه على الإطلاق، وبعضها يشير إليه بدون تقديم ما كتبه أو التعريف به وأهميته . وقد أشار مؤرخ الرحالة الروس في الشرق الأوسط ب . م . دانتسيغ إليه بإيجاز قائلاً "زار نجداً الموظف لدى روسيا في سنة ١٨٩٢م إدوارد نولده، وهو ألماني من ساحل البلطيق . وقد توجه عن طريق بيروت ودمشق إلى حائل ، وزار مخيم مشيخة ابن رشيد في شمالي الرياض ، ثم توجه إلى طرابزون عن طريق العراق ، والأناضول الشرقية. ولمذكراته أهمية كبيرة جداً ، يشير فيها إلى الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية ، وزيارته لمخيم ابن رشيد" (١) .

أثار الغموض الذي يلف هذا الرحالة اهتمامي العلمي فسعيت للحصول على كتابه النادر الذي تم طبعه عام ١٨٩٥م، لمعرفة معلومات أكثر عن الكاتب ورحلته وهدفه ، فتحصلت على نسخة مصورة كاملة منه، وبعد ترجمة الجزء الخاص بشمال الجزيرة العربية تبينت لي أهمية ماكتبه، فعملت على ترجمة ونشر الجزء المتعلق بالجزيرة العربية، منذ مغادرته دمشق في أواخر عام ١٨٩٢م وحتى إنهائه رحلته ومغادرته نجداً، ووصوله إلى مشهد على (النجف) في العراق (٢) .

(١) ب . م . دانتسيغ . الرحالة الروس في الشرق الأوسط . ترجمة وتعليق معروف خزنة دار ، بغداد : دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١م .

(٢) د . عوض البادي ، الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر (حائل - القصيم - الرياض) . نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد ١٣١٠هـ / ١٨٩٣م . المعهد العربي للدراسات الدولية : واشنطن د . سي ، ١٩٩٧م .

كما أن هناك ترجمة لبعض هذه الفصول إلى اللغة الإنجليزية ، ووردت في كتاب عن حائل ، انظر : Philip Ward, Ha'il : Oasis city of Saudi Arabia. Cambridge : The Oleander Press, 1983.

ولكن قبل التحدث عن رحلة هذا الرحالة المغمور، يجدر بنا التعرف على شخصيته ، فمن هو يا ترى البارون إدوارد نولده Baron Eduard Nolde ؟ : لا تتوافر معلومات كافية أو وثائق عن شخصيته قيط اللثام عن الدور الذي كان يقوم به ، أو الرسالة التي يحملها بصفته مندوباً لاستخبارات روسيا لأمير نجد ، وبحماية ورعاية السلطان العثماني ، إلا أن ناشر كتابه قد قدم للكتاب بالتعريف به من خلال المعلومات التي قدمها أصدقاء المؤلف ، وهي المعلومات التي اعتمدنا عليها في التعريف الشخصي به وبحياته .

ولد إدوارد نولده عام ١٨٤٩م في مقاطعة لاتفيا ، في بيت من البيوت الألمانية النبيلة المقيمة في تلك المقاطعة التي كانت تحت الحكم القيصري الروسي تلقى نولده تعليماً خاصاً حتى وصل المرحلة الثانوية ، التي درسها في المدرسة الثانوية في ريجا (عاصمة لاتفيا ، إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً المستقلة حالياً) . بعد ثلاث سنوات في المرحلة الثانوية غادر نولده المدرسة قبل إكماله لهذه المرحلة . وفي عام ١٨٧٠م دخل متطوعاً في كتيبة الحرس أولان التي كانت موجودة في وارسو ببولندا ، ثم تركها بعد عام ونصف قبل أن يؤدي الامتحان ليصبح ضابطاً . وعندما قامت ثورة كارل في إسبانيا عام ١٨٧٢م انتقل إليها ، ودخل متطوعاً في صفوف "فرسان كارل" وبقي بها حتى عام ١٨٧٦م ، حيث وصل إلى درجة ملازم وقاد هذه السرية . في عام ١٨٧٧م رحل نولده إلى أمريكا الجنوبية حيث شارك لمدة عام في القتال الدائر في حينه بين تشيلي وبيرو ، وكان يقاتل في صفوف قوات تشيلي ، ثم زار البرازيل والولايات المتحدة . وعاد نولده إلى بطرسبورغ في روسيا في أواخر

خريف ١٨٧٨م، وهناك عُين في وظيفة حكومية بصفته مفتشاً عن ضريبة الخمر . بدأ بعد ذلك يكتب في صحيفة بطرسبورغ "هيروالد" مقالات طويلة عن ضريبة الخمر، وعن كيفية تحسينها . ونظراً لكونه على علاقة دائمة بدوائر الجمعية التقنية في بطرسبورغ، فقد اختارته الجمعية عضو شرف بها .

وفي عام ١٨٨٨م بدأ نولده رحلاته إلى إسطنبول وأفريقيا وسوريا والعراق والجزيرة العربية ، وبقي مرتحلاً حتى أنهى حياته منتحراً في اليوم الحادي عشر من شهر مارس ١٨٩٥م ، وهو في سن السادسة والأربعين ^(١) .

لا تتوفر أية معلومات حول ظروف انتحار نولده ، في لندن ، التي عاد إليها بعد اكتمال رحلته إلى نجد وكردستان وأرمينيا ، إلا أنه ترك في غرفته ، في الفندق الذي عاش فيه طيلة عام كامل قبل انتحاره، رسالة للسفارة الروسية، التي كان على اتصال بها خلال إقامته في لندن، يعلن أنه انتحر برغبته وأن له بعض المال في حسابه البنكي في لندن يطلب استخدامه لعمل مراسم دفن تليق بمكانته . تأكد بعد ذلك أنه كان يعمل سرياً لحساب استخبارات القيصر الروسي . وأن مفاوضاته مع ابن رشيد كانت تهدف إلى تأمين مرفأً للبواخر الروسية على الخليج ^(٢) .

قبل وفاته سلم البارون نولده إلى أحد الناشرين يومياته عن الرحلة ملقياً

Baron Eduard Nolde, Reise Nach Innerarabien, Kurdistan Und Arem-
enie 1892. Braunschweig : Druck und Verlag Von Friedrich Vieweg
und Sohn, 1895. pp. V-V11.

H.V. F. Winstoe, The Illicit Adventure . London : Jonathan Cape, (2)
1982. p. 11 .

بذلك على عاتقه مسؤولية نشرها ، وهذا بدوره قدمها إلى دار النشر "فيفج وولده" في براونشفايخ بألمانيا ، وقد قامت دار النشر بإصدار يوميات الرحلة في كتاب باللغة الألمانية بعد أشهر قليلة من انتحار الكاتب بعنوان :

"رحلة في وسط الجزيرة العربية وكردستان وأرمينيا في عام ١٨٩٢"

"Reise Nach Innerarabien, Kurdistan Und Aremenien 1892"

أهمية مذكرات البارون إدوارد نولده :

تكتسب مذكرات نولده أهميتها من كونها تصف الأحوال السياسية في أواسط الجزيرة العربية في مرحلة يشوبها الغموض، ولم تدرس حتى الآن دراسة وافية تعتمد على الوثائق والسجلات المدونة ، كما أن ما كتبه نولده وخصوصاً في وصفه الأوضاع السياسية للمنطقة، وعرضه وتحليله لتاريخ الأحداث يعدّ جديداً ومتميزاً، وينم عن معرفة حقيقية بأوضاع الجزيرة العربية التي خصها بفصل كامل من الكتاب ، وهذا الفصل هو الذي ترد تفاصيله في هذه الدراسة. كما أن ما يقدمه من معلومات له بعض الأهمية بالنسبة للباحثين المهتمين بالتاريخ السياسي لتلك المرحلة المجهولة في تاريخ نجد ؛ لأنها جديدة وتناقض بعض المعلومات التاريخية المعروفة .

بالإضافة لما سبق ؛ فإن نولده جاء في مرحلة اختفى فيها مفهوم الرحالة التقليديين وبداية عهد الرحالة الدبلوماسيين - وهو من أوائلهم - الذين يحاولون العمل على ترتيب أوضاع المنطقة ، بما يحقق مصالح بلادهم في ضوء سياسات التنافس الدولي التي كانت قد انطلقت من عقالها على المنطقة العربية خلافاً للإمبراطورية العثمانية ، وتقاسم مناطق نفوذها .

نص المذكرات :

جاءت مذكرات البارون إدوارد نولده في كتاب احتوى على ستة عشر فصلاً، تناولت رحلته إلى وسط الجزيرة العربية وإلى العراق وكردستان وأرمينيا. احتلت المادة الخاصة بالجزيرة العربية خمسة فصول، وتناولت تفاصيل مختلفة عن رحلته في شمال الجزيرة العربية منذ انطلاقة من دمشق وعبره وادي السرحان إلى الجوف ومنها إلى حائل، التي وصفها في فصل كامل، وعن لقائه بمحمد بن رشيد ومراسم استقباله، وبعض نقاشاته معه، بالإضافة إلى معلومات تاريخية وسياسية عن المنطقة الداخلية للجزيرة العربية التي نعرض لها في هذه الدراسة ^(١).

الأوضاع السياسية في نجد :

يبدأ نولده مناقشته عن الأوضاع السياسية بتقديم نبذة جغرافية عن المنطقة التي يعرض لأحوالها ويحددها بالقول : "إن الجزيرة العربية البدوية هي كل المنطقة التي يقطنها ويحكمها البدو، وتمتد حدودها الشمالية في شكل شبه دائرة يشكلها خط عبر دمشق - حلب ، أورفا ، الموصل . وحدها الجنوبي يقع في صحراء الدهناء التي لا أهمية لها . أما الحدود الشرقية فتمتد من الموصل إلى بغداد على نهر دجلة ، ثم إلى الحدود الفارسية ، فالخليج شاملاً شبه جزيرة قطر . وفي الغرب تقع فلسطين، والحدود غير المحددة للمناطق التي تحكمها

(١) جميع المعلومات الواردة عن الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية التي وردت في هذه الدراسة وردت في الفصل الثالث من المذكرات : انظر :

Nolde, Reise, pp. 52 - 78.

والفصل الثالث من كتاب "الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية : نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد ١٣١٠ هـ / ١٨٩٣ م" - ص ٥٩ - ٨١ .

تركيا في الحجاز وعسير . أما عُمان وحضرموت والساحل الجنوبي ؛ فإنها لا توضع في الحسبان حتى وإن كان يقطنها بدو ، فهي مناطق تفصلها عن نقطة مركز دولة العرب الصحراء الجنوبية الكبرى (الربع الخالي) غير المأهولة بالسكان . ويمكن للمرء أن يفترض وجود رابطة ضعيفة بينهم إن وجدت على الإطلاق . إن العرب الذين يقطنون المنطقة المذكورة منقسمون إلى عدد من القبائل الكبيرة والصغيرة وهم مستقلون جزئياً عن بعضهم ، لكنهم مرتبطون جزئياً برابطة الدم أو المعاهدات .

بعد ذلك يقدم نولده عرضاً للقوى القبلية التي يعدّها ذات نفوذ وأهمية سياسية ، وهذه القوى هي :

- ١ - قبائل شمر الشمالية الموجودة في منطقة الهلال الخصيب التي تحكم جنوب - غرب وجنوب نهر الفرات ، أي جميع المنطقة بين سوريا وبغداد .
- ٢ - قبيلة عنزة .
- ٣ - قبيلة "المنتفق" في العراق .
- ٤ - قبائل شمر الجنوبية ، وعاصمتهم حائل .
- ٥ - قبيلة عتيبة .
- ٦ - قبيلة مطير .
- ٧ - قبيلة حرب . ويناقدش نولده في سياق ذكره لهذه القبيلة علاقتها بآبن رشيد وبالحنجان الذين يأتون إلى مكة .
- ٨ - أهل المدن الذين يسمون بأسماء مناطقهم (أهل عنيزة ، أهل بريدة ، أهل الحريق ، وهكذا) .

بعد ذلك يتناول نولده القوة العسكرية لهذه القوى ، ويقول : "إن تعداداً للسكان في الجزيرة العربية هو أمر غير معروف ، ولكن بمجرد عد المحاربين والإبل يمكن للمرء أن يكونَ تقديراً جيداً لعدد السكان في هذا البلد ، أو بالأحرى في هذه الصحراء بضرب هذا العدد في ٥ ، حيث إن البدو يشكلون غالبية السكان .

إن جملة عدد المحاربين في ذلك الإقليم ، الذي عدّه موطن البدو هو بالتقريب ١٢٠,٠٠٠ ، والذي يعني بالتأكيد أن جملة السكان هي حوالي ٦٠٠,٠٠٠ نسمة .

بالطبع ؛ فإن هذا الرقم ليس بالرقم الكبير بالنسبة لبلد ذي مساحة على أغلب الاحتمالات تعادل ضعف مساحة ألمانيا (٥٤٠,٠٠٠ كيلو متر مربع) .
إن حجم المحاربين الـ ١٢٠,٠٠٠ يمكن أن يقسم وفق القبائل على هذا النحو :

- شمر الشماليون لديهم حوالي ١٥,٠٠٠ محارب .
- وجميع عنزة ٣٠,٠٠٠ .
- ابن رشيد مع كل قوات نجد عدا قوات قبيلة حرب ، وعتيبة ، ومطير ٣٠,٠٠٠ .
- قبيلة حرب ١٥,٠٠٠ .
- قبيلة المنتفق في عراق العرب ١٠,٠٠٠ .
- كل القبائل المتبقية الأخرى ٢٠,٠٠٠ محارب .

التاريخ السياسي الحديث لوسط الجزيرة العربية :

يستعرض نولده في مذكراته الخطوط العامة لتاريخ وسط الجزيرة العربية الحديث ، الذي يبتدي بالنسبة له مع ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في منتصف القرن الثامن عشر . ثم يتناول الأسس النظرية التي قامت عليها مؤكداً أنها وجدت الموافقة والاستحسان من أبناء المنطقة ، مما جعلها تنتشر بصورة سريعة عبر كل الجزيرة العربية .

بعد ذلك يمضي نولده ليقول : "لقد جعل أمير الدرعية محمد بن سعود من نفسه أول أمير سياسي للدعوة الجديدة . لقد قام ، مدعوماً بشعبية العقيدة الجديدة ، التي أحيت الروح المعنوية في قواته ، وفي الوقت نفسه غرست روح تعصب إيماني ، وبالمثل شجاعة تماثل التحدي للموت . وبذلك استطاع محمد بن سعود وخلفاؤه (عبد العزيز وسعود) إخضاع كل داخل الجزيرة العربية تحت تأثير التعاليم الوهابية^(١) . وتدرجياً سقطت المدينتان المقدستان مكة والمدينة في أيديهم" .

يتناول نولده بعد ذلك الأسباب التي أدت إلى جعل الأتراك يلتفتون إلى ما يجري في الجزيرة العربية بعد أن كانوا مشغولين في السياسات الأوربية مما دعاهم إلى العمل على تنفيذ حملة ضد الدولة الجديدة التي باتت تهدد بغداد ، وبدأت تجهيز جيش عرعرم مسبقاً لهذا الغرض . ويصف نولده ماجرى بعد ذلك ويقول: "كان الأتراك لا يزالون ناشطين للغاية في أوروبا ، ولكن محمد علي نائب السلطنة القوي في مصر ، تلقى الأمر بأن يسقط الوهابيين . وبناء على ذلك

(١) ليس للوهابية تعليمات خاصة ، ولم يتسم أهل البلاد بالوهابية ، وإنما هو إطلاق الأعداء ؛ ليجعلوها بهذا الاسم بدعة جديدة محدثة .. وما تعدى ابن عبد الوهاب - رحمه الله - مذهب السلف عقيدة ، ومذهب أحمد فقهاً مع فتح باب الاجتهاد [الدرعية] .

الأمر، ظهر في عام ١٨١١م أول جيش من القوات المصرية في الجزيرة العربية . كان الجيش في البداية يتكون من حوالي ١٠,٠٠٠ رجل، معظمهم قوات ألبانية تحت قيادة طوسون باشا، الابن الأكبر لنائب السلطنة . وفي الوقت ذاته كانت قوة الوهابيين الرئيسة تتمركز في الشمال الشرقي لإمبراطوريتهم، حيث كان سعود يعدُّ نفسه للاستيلاء على بغداد، التي اضطر للتخلي عنها للمرة الثانية ^(١).

لقد كانت حرباً طويلة شرسة . فبالرغم من كل التعزيزات التي أحضرت من مصر لم يتمكن طوسون من عمل شيء سوى المحافظة على وجوده في الحجاز فقط . كان طوسون قد استولى على مكة لمدة قصيرة ، ولكنه تلقى هزائم في معارك أخرى ، لذلك كان لابد لمحمد علي من أن يدخل بنفسه مرتين للجزيرة العربية ليستعيد الموقف بقوات جديدة ، تلك التي لم ينجم عنها شيء سوى احتلال المدينة عام ١٨١٥م ^(٢) .

دون أن أخوض في أحداث كثيرة عن هذه الحرب ، لابد لي أن أذكر فقط باختصار بأنه بدا وكأن الأتراك قد نفذوا خططهم الأصلية ، إذ لم يكن هناك اختراق ناجح للمصريين . لقد كانت هذه الخطط الأصلية تتمحور حول استعادة

(١) المعروف أن جيوش الدولة السعودية الأولى كانت جيوشاً وقتية تجمع لحملة معينة وقبلها بمدة وجيزة، ويقودها الحاكم في غارات سريعة ، فهي بهذا لا يمكن أن تتمركز في جهة معينة . كما أن نشاط الإمام سعود حوالي عام ١٢٢٦هـ / ١٨١١م كان مركزاً على الحجاز ، والغارة الوحيدة التي قام بها ذلك الإمام في شمال الجزيرة ، كانت ضد جنوب غرب بلاد الشام (حوران) في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م . أما بغداد فلم يحاول الإمام سعود الاستيلاء عليها [المعلق] .

(٢) لم يفقد طوسون باشا مكة وجدة والمدينة بعد استيلائه عليها ، كما أن محمد علي باشا لم يدخل إلى الجزيرة العربية سوى مرة واحدة ، وقد تمكنت قوات طوسون باشا وأبيه من السيطرة على جميع الحجاز بحلول عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م وليس المدينة فقط [المعلق] .

الأماكن المقدسة من خلال قوة وإصرار محمد علي باشا ، وفي الوقت نفسه تدمير قوة كل من الوهابيين وملك مصر الريب ، حليف الأتراك الذي تزداد قوته باضطراد . لكن على أي حال لم يتحقق ذلك ، إذ ظهر في عام ١٨١٦ قائد ميدان من الطراز الأول في جبهة المعركة متمثلاً في شخص إبراهيم باشا الذي اكتسب شهرة سابقة في كل من اليونان ، سوريا وآسيا الصغرى (١) .

استقر رأي هذا الرجل المقدام ، سريعاً ، على مهاجمة الوهابيين في داخل صحرائهم ، وفي معركة "ماوية" لم يهزمهم هزيمة نكراء فحسب ؛ بل أمر أيضاً بذبح الآلاف من الذين وقعوا في الأسر حينئذٍ . من هناك تحرك ليحاصر الرس ، حيث ارتكب أول الأخطاء في حياته العسكرية ، لقد بدأ مع مهندس الفرنسي بتطويق ما اعتقد أنها مدينة مهمة مستخدماً جميع قواعد فنون القتال . لكنها في الواقع لم تكن ذات جدوى له ، مثلما كان الأمر كذلك بالنسبة لقصفه وهجماته . لقد صمد لمدة أربعة أشهر خسر فيها أكثر من ثلاثة آلاف رجل ، بعضهم قتل بأعداد كبيرة نتيجة للهجمات الشرسة المتزايدة للوهابيين من الرس ، وللهجمات على مؤخرة الجيش . وقد اضطر إبراهيم أثناء انتظاره لقوات جديدة إلى الدخول في هدنة ، إلا أنه قام بعد وقت قصير بتجديد عملياته العسكرية ، حيث قام بالتحرك إلى الداخل تاركاً الآن الرس جانبا ، وبعد أيام من القصف استسلمت له عنيزة ، ثم استسلمت بريدة وشقراء وبعدهما بدأ إبراهيم باشا حصار الدرعية عاصمة الوهابيين .

(١) حروب إبراهيم باشا وشهرته في كل من اليونان وسوريا وآسيا الصغرى كانت لاحقة لحروبه في جزيرة العرب ، وليست سابقة لها [المعلق] .

بعد وفاة سعود في عام ١٨١٦م، تقلد ابنه عبدالله عرش الوهابيين فألقت على عاتقه مهمة الدفاع عن الدرعية ضد إبراهيم باشا ^(١) . صمدت الدرعية لأكثر من ستة أشهر ، وذات مرة كان إبراهيم باشا في خطر كبير عندما انفجر كل مستودع الذخيرة تقريباً . الشيء الذي نتج عنه وضع إبراهيم في موقع لا يستطيع فيه الدفاع إلا عن موقعه . لكن شجاعته الشخصية وعزمه الأكيد حققا له النصر في النهاية رغم كل المصاعب . فبعد وصول التعزيزات الجديدة وكميات كبيرة من الذخيرة اضطرت الدرعية أخيراً للاستسلام تحت شروط قاسية . وكان لابد من دك الدرعية وتسويتها بالأرض، وأخذ أمير الوهابيين أسيراً إلى القاهرة والقسطنطينية، حيث سيقرر السلطان مصيره. وبالرغم من توسط محمد علي لصالحه؛ فإن عبدالله قد أُعدم في القسطنطينية عام ١٨١٨م" ^(٢) .

يستمر نولده في وصفه الأحداث التي جرت بعد ذلك ويقول : "من الآن فصاعداً فإن كل دواخل الجزيرة العربية حتى الخليج قد أصبحت تحت سيطرة المصريين . كل المدن المهمة تم وضعها تحت سلطة الحاميات المصرية . أما أمراء العرب وزعمائهم فقد تم عزلهم أو عينوا بصفتهم أتباعاً للمصريين أو حكاماً حسب الظروف . هذه التغييرات القليلة حدثت أثناء فترة التمرد والاضطرابات المتنوعة التي استمرت حتى عام ١٨٤٢م .

(١) الثابت في المصادر المحلية والمعاصرة كعثمان بن بشر (عنوان المجد في تاريخ نجد، وزارة المعارف ، ١٣٩١هـ ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ، ٢٣٩) أن وفاة الإمام سعود كانت في جمادى الأولى عام ١٢٢٩هـ /

أبريل ١٨١٤م وليس في عام ١٨١٦م كما أورد صاحب المذكرات [المعلق] .

(٢) كان مقتل الإمام عبدالله بن سعود في إسطنبول في نهاية شهر ربيع الآخر أو بداية جمادى الأولى عام ١٢٣٤هـ (بداية عام ١٨١٩م) [المعلق] .

خلال تلك الفترة انصرف اهتمام المصريين وقوتهم نحو هدف أكبر. فإبراهيم كان قد هزم الأتراك بصورة حاسمة في معركة "كونيا"، وحكم سوريا وفلسطين دون معارضة، ومنهما شن حملة ثانية ضد القسطنطينية. ونتيجة لذلك لم يستطع الأتراك حماية أنفسهم إلا بواسطة القوى المشتركة للقوى العظمى. لقد أصبح المصريون في حالة سأم وضجر من الحملات النائية؛ لأنهم يدفعون على الدوام بقوات جديدة لنجد الجاحدة وغير المكافئة إلى أن تم التخلي عنها تدريجياً، حيث غادرت آخر قوات مصرية بحلول عام ١٨٤٢م. كانت تلك بداية لفترة لاحقة من الحرب في أواسط الجزيرة العربية التي قدر لها أن تدوم قرابة نصف قرن^(١). لفترة من الزمان سارت الأمور وكأن حكومة الوهابيين سوف تنهض من الحضيض. لقد أتى فيصل بن تركي إلى الرياض، وتم الاعتراف به تدريجياً من قبل كل نجد تقريباً، وكان الاعتراف اسمياً فقط في الكثير من المناطق. ما بين العام ١٨٤٢م، السنة التي انسحبت فيها آخر قوات مصرية والعام ١٨٧٠م - ١٨٧٢م^(٢).

يستعرض نولده بعد ذلك طبيعة القوى والصراعات التي سادت في نجد خلال هذه الفترة، ويقول: "كانت هناك صراعات في نجد تدور بين القوى التالية:

-
- (١) أجبر الإمام تركي بن عبدالله الحاميات المصرية على مغادرة نجد في عام ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م وحكمها بصفته حاكماً مستقلاً لمدة عشر سنوات. ثم عادت القوات المصرية إلى نجد في عام ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م، وبقيت هناك إلى عام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م [المعلق].
- (٢) حكم الإمام فيصل بن تركي فترتين، الأولى بين عامي ١٢٥٠-١٢٥٤هـ / ١٨٣٤ - ١٨٣٨م، والثانية بين عامي ١٢٥٩ - ١٢٨٢هـ / ١٨٤٣ - ١٨٦٥م، وهذا يختلف عما أورده صاحب المذكرات [المعلق].

١ - آل سعود في الرياض والأحساء .

٢ - إمارة "حائل" ذات القوة المطردة .

٣ - عنيزة بقبائلها وأتباعها .

٤ - بريدة .

٥ - شقراء .

٦ - الحوطة والحريق .

٧ - قبيلة حرب .

٨ - قبيلة عتيبة .

٩ - قبيلة مطير .

بعد أن نمت وازدهرت حائل التابعة لابن رشيد بفضل دأب ومثابرة الأمراء طلال ومتعب خلال الفترة ما بين ١٨٤٣م و ١٨٧٠م^(١) ، استولى الأمير محمد - وهو الخامس في تولي الحكم - على الحكم ؛ لقد عزز محمد بن رشيد سلطته بصورة سريعة للغاية عن طريق الرعب وسفك الدماء . ففي اليوم نفسه الذي توج فيه أمر بإعدام ستة من أفراد عائلته الذين رأى أنهم يشكلون خطورة عليه، وأعدموا في قلعة حائل . وبعد أيام قليلة من ذلك ولنفس ما ذكر آنفاً من أسباب قتل ثمانية أفراد آخرين (من أبناء إخوانه وأخواته) في منزل ابن رشيد الخاص . وعلى أي حال لم يكن هؤلاء الضحايا هم آخر من تتم التضحية بهم في سبيل تقوية سلطة ابن رشيد .

(١) حكم الأمير طلال بن رشيد بين عامي ١٢٦٣ - ١٢٨٣هـ / ١٨٤٧ - ١٨٦٦م ، وخلفه أخوه متعب حتى مقتله في عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م [المعلق] .

إن وجود دولة في حائل ، منظمة مسبقاً بصورة جيدة للغاية ، كان مصدر قوة للأمير الجديد . لقد بدأ هذا الأمير الجديد سريعاً في إظهار وجوده في كل الشؤون الداخلية للجزيرة العربية . فلمدة عشرين سنة كان يظهر سنة بعد أخرى في ميدان المعارك ، محاصراً لعنيزة ومطوقاً لها مرة ، ثم ساعياً بعدها للحرب مع عتيبة ومطير ، ومن ثم متدخلاً مرة أخرى في الرياض . كانت نورة شقيقة ابن رشيد المحبوبة ورفيقة صباه ، التي اشتهر جمالها عبر الجزيرة العربية قد تزوجت من عبدالله بن فيصل أمير الرياض الذي خُلع عن العرش للمرة الأولى في عام ١٨٧٢م ، وتم سجنه مع زوجته نورة في برج بواسطة ابنهما ، وكانا سيموتان من الجوع . إلا أن نورة - على أي حال - تمكنت من إخطار شقيقها عن مأزقهم المأسوي بمساعدة رسول بعثته على ظهر جواد . في تلك الأثناء تصادف أن كان ابن رشيد في جوار مدينة شقراء . وبما أنه كان قادراً على الوصول إلى الرياض بصورة عاجلة ومفاجئة ، فهو لم يستطع أن ينقذ حياة شقيقته فحسب ؛ بل نجح أيضاً في إعادة تنصيب الأمير على الرياض ^(١) . لم يدم هذا الأمر طويلاً ، إذ تم عزل عبدالله مرة ثانية بعد سنتين ، وكان محظوظاً هذه المرة ليهرب إلى حائل ، حيث دخل في تحالف مع

(١) الثابت أن الذين قبضوا على الإمام عبدالله بن فيصل وسجنوه في الرياض ، واستولوا على السلطة هناك هم أبناء أخيه سعود بن فيصل وليس ابن ذلك الإمام . وأن ذلك حدث في عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م ، وليس في عام ١٨٧٢م كما أورد صاحب المذكرات . والثابت أيضاً أن الأمير محمد بن رشيد لم يعد تنصيب الإمام عبدالله في الرياض ، بل أخذه معه إلى حائل وعين على الرياض أميراً من قبله . كما أن هذه ليست المرة الأولى التي يفقد فيها الإمام عبدالله بن فيصل الحكم [المعلق] .

الأتراك^(١). كان مدحت باشا ، الوزير الأكبر الحالي في القسطنطينية ، الحاكم العام لبغداد آنذاك ، قد أوضح بجلاء نوايا حكومته بالدخول إلى الجزيرة العربية ، خاصة بعد أن تيقن أنه سوف يحصل على التعاون الكامل من ابن رشيد . وهكذا ؛ وبالرغم من الرغبة البريطانية المعروفة للسلام في الخليج ، فإن الحملة التركية ضد الأحساء سارت كما كان مخططاً لها عام ١٨٧٤م - ١٨٧٥م. لقد أراد الأتراك الزحف نحو الرياض ، ولكن في آخر لحظة عدلوا عن السير عبر ٣٠٠ كيلومتر من صحراء نفود الأحساء الواسعة^(٢) .

أما ابن رشيد ، الذي كانت لديه أهداف الأتراك نفسها ، وبالتحديد ، إعادة تنصيب عبدالله على عرش الرياض ، فقد كان عليه أن ينجز هذا الهدف بمفرده بعد أن عدل الأتراك عن المسير إلى الرياض . ووفقاً للأقدار ؛ فإن نتائج هذه الأحداث أدت إلى حالة من الندم لدى العرب حتى اليوم (١٨٩٣م) . لقد قادت تلك الأحداث إلى وجود الحكم التركي غير المقبول على ساحل الأحساء كله . فمن وجهة النظر التركية أن سيطرتهم على هذه المنطقة تحقق هدف عزل منطقة داخل الجزيرة العربية عن البحر ، الأمر الذي أدى إلى إشعال فتيل الحروب ، والانتفاضات والتدخلات لأمد طويل في هذه المنطقة . لقد وجد الأتراك أن احتلال الأحساء شوكة في ظهرهم ، حيث عانوا هناك من نكسة مؤلمة

(١) كان استنجد الإمام عبدالله بن فيصل بالعثمانيين (الأتراك) في نهاية عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م ، ولم يكن بعد استيلاء الأمير محمد بن رشيد على الرياض كما ذكر صاحب المذكرات . كما أن الإمام عبدالله لم يصل إلى حائل في هذا المرة [المعلق] .

(٢) استولى العثمانيون على الأحساء في عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م ، وليس في عام ١٨٧٤ - ١٨٧٥م كما ورد في المذكرات [المعلق] .

في العام الماضي (١٨٩٣م) ، الشيء الذي أثبت أنهم لا يستطيعون حكم هذه الصحراء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلا من خلال معرفة الطريقة الصحيحة للتعامل مع العرب .

تدخل ابن رشيد ثلاث مرات في شؤون الرياض ، وكانت له حملات لا تحصى عدداً ضد قوى نجد الأخرى ، وقد كان الحظ معه دائماً في عملياته ضدهم إلا في حالة مدينة عنيزة ، التي كانت هي سوء الطالع الوحيد في كل عملياته بالرغم من كثرة عمليات محاصرتها ومقاطعتها .

وأخيراً ؛ يتناول نولده أهم أحداث عشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وهو اكتمال سيطرة ابن رشيد على كامل نجد بعد معركة المليدا الشهيرة التي يسميها نولده معركة بريدة والتي حدثت عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م . يقول نولده : "في ربيع عام ١٨٩١م حدث شيء سيحدد مصير نجد لزمان قادم طويل كما أظهرت الأحداث . لقد تشكل حلف كبير ضد أمير حائل القوي الذي كانت قوته تتزايد باضطراد . كانت القوى البارزة لهذا التحالف هي : عنيزة تحت زعامة المحارب العجوز الشيخ زامل بن سليم ، وجميع بيت الرياض (آل سعود) الذين نبذوا خلافتهم الداخلية جانباً ، ومدن بريدة ، والرس ، وشقراء ، وجميع قبائل عتيبة ومطير .

قبل أن يصبح هذا الحلف المهم حلفاً رسمياً ، كان على كل الأعداء والمتنافسين فيما بينهم أن يذنبوا خلافتهم ، فمئة عائلة من العائلات العربية تخلت نهائياً عن مطالبات الدم مع أعدائها وخصومها . لقد كانت الكراهية المشتركة لابن رشيد هي التي وحدت بينهم ، ولكن القوة المحركة خلف كل هذه

المؤامرة^(١) هو زامل . كان زامل رجلاً استثنائياً ، فبرغم بلوغه ٦٠ عاماً من العمر ، إلا أنه كان يتمتع بشهرة بطل حرب والرجل الأقوى والأكثر شجاعة في الجزيرة العربية . لقد تم تعيين زامل قائداً أعلى لقوات الحلف ، وفي مقر حكومته تم عقد الاجتماع الأخير لقادة الحلف بعد إرسال خبر إعلانهم للحرب على ابن رشيد إلى حائل .

لقد حشد التحالف قوة قوامها ٣٠,٠٠٠ رجل بين عنيزة وريدة ، وبعد زمن وجيز برز أمامهم ابن رشيد الذي كان لديه العدد نفسه من القوات تقريباً . كان من بين حلفاء ابن رشيد المهمين ، قبيلة حرب بأكثر من ١٠,٠٠٠ رجل ، وحوالي ١٠٠٠ فارس على صهوات الخيل جاءوا على وجه السرعة من قبيلة شمر الشمالية في الهلال الخصيب لمساندة ابن عمهم أمير حائل .

لقد احتشد في هذه المناسبة ٦٠,٠٠٠ محارب - وهو عدد كبير بصورة غير عادية بالنسبة للجزيرة العربية - ، والذي شككت في البداية في صحته بالنظر إلى الخيال الشرقي والنزعة الشرقية إلى المبالغة . ولكن بالحصول على بيانات دعم من مصادر مختلفة ؛ فإنني الآن أعتقد بحق أنه كان من الممكن أن يصطف مثل ذلك العدد الكبير من المحاربين ضد بعضهم بعضاً ، وهي حمى معركة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزيرة العربية حسبما يمكن أن يتذكر أي إنسان منذ الوقت الذي احتشد كل العرب القادرين بدنياً تحت راية الوهابيين للدفاع عن صحرائهم ضد إبراهيم باشا .

في ذلك اليوم - على أي حال - برز وضع لم يكن ابن رشيد يضعه في الحسبان ، وسيصبح له أهمية قصوى بالنسبة له . لقد اعتقد بأنه كسب شيخ

(١) هي خطة ، وإنما عبر عنها بالمؤامرة لأنه يعبر عن ابن رشيد .

بريدة حسن بن مهنا إلى جانبه ، وذلك عبر مهارته الدبلوماسية ، وبمنحه عدة هدايا بما في ذلك ست مئة جنيه إسترليني نقداً ، وهو ما يعد مبلغاً ضخماً لشيخ عربي في تلك الأيام . إلا أنه بدلاً من أن تنضم بريدة وزعيمها إلى حلفه ، أو على الأقل تبقى في موقف الحياد حسبما توقع ابن رشيد ، فقد وجد نفسه مخذولاً في آخر لحظة ، فبريدة كانت جزءاً من الحلف المضاد . هذه النكسة غير المتوقعة لم تكن مزعجة ومقلقة فحسب ؛ بل أخلت بتوازن القوة العددية ، وبشكل بالغ الأهمية على الوضع الدفاعي للبلدان المؤيدة للحلف .

لقد اصطفت قوات الحلف العربي المعارض على خط بطول ٣٠ كيلومتراً تقريباً ، كانت كل من قوات عنيزة وبريدة تتولى جناحي الجيش على امتداد الخط مع ١٢,٠٠٠ من سرايا المشاة الأقوياء في الوسط . في مثل هذا الوضع لم يكن هناك من خيار لدى ابن رشيد سوى استخدام الخيالة من الفرسان المتمرسين للالتفاف حول العدو ، وخلق الرعب وسطهم عندما تسنح الفرصة بذلك .

إن حياة الإنسان تعدّ ثمينة في الجزيرة العربية ، وإن التضحية بها يجب أن تتبع التقاليد العربية المحترمة ، فحتى المنتصر يجب أن يكون مستعداً لفقد ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ رجل قتلى . في هذه الحالة أدرك ابن رشيد أنه لا بد من مهاجمة مواقع مشاة عنيزة بفرسانه ؛ لأن هؤلاء المشاة يفتقرون للتسليح الجيد بصورة كبيرة ، وفق المعايير الأوروبية للمشاة ، فقد كانوا مسلحين بالبنادق التي تعباً من فوهتها بالبارود ، والتي برهنت - على أي حال - أنها كافية ضد الرماح فقط ، إضافة لذلك كان زامل قد جلب كمية كبيرة من أغصان الشجر

وقام بحفر خنادق صغيرة في الرمال لحماية نفسه ، وفي الوقت ذاته لتحمل وطأة الهجوم الأول لفرسان ابن رشيد إلى حد معين . لقد أتى النصر في البداية إلى جانب الحلف .

إن الحرب التي استمرت شهراً كانت ستبقى مدة أطول ، فالبدو يحتاجون إلى قدر ضئيل للغاية من الطعام والإمدادات في غزواتهم ، ولكن كان الأمر الجدير بالملاحظة هو تمكنهم من جلب مثل تلك المجموع الكبيرة من الناس إلى بريدة .

فيما يتعلق بالحلف المضاد لابن رشيد كان ذلك أمراً يسير التحقيق، حيث إنهم لم يكونوا لوحدهم ؛ بل كان لديهم الدعم من اثنتين من أكثر المدن أهمية، هما عنيزة وبريدة، اللتان كانتا مستعدتين منذ وقت طويل لمثل هذا الحدث الكبير. أما بالنسبة لابن رشيد ، فقد كان الموقف مختلفاً تماماً، إذ كانت قواته في الصحراء وعلى بعد ٢٠٠ كيلو متر من أقرب نقطة إمداد ماء ، لقد استخدمت الآلاف من الإبل ليلاً ونهاراً لإحضار كل المؤن حتى الماء إلى معسكره .

لم يكن لمثل هذا الحال أن يستمر طويلاً ، خاصة أن فصل الصيف كان يقترب ، ولأن ابن رشيد يريد أن يكون قادراً على الانسحاب من هذا المعسكر إذا أصبح مهدداً بالهزيمة . إن مثل هذا الأمر كان يبدو مستحيلاً لابن رشيد الذي كان دائماً منتصباً طوال العشرين سنة الماضية في جميع المعارك التي خاضها دون استثناء ، وهو سجل يعتمد إلى حد كبير على مظهره ، وخوف من ثروته الكبيرة، وسمعته الدامية . كما أنه إذا ما تقهقر منسحباً من بريدة، منهزماً في تلك المواقع ؛ فإنها سوف تكون بداية النهاية بالنسبة له . إن حلفاءه من

قبيلة حرب، الذين كانوا يأملون في غنائم كبيرة تحت رايته قد عادوا بالفعل إلى ديارهم، ونتيجة لهذا، أصبحت حائل عملياً دون أي دفاع، وأن الحلف سيسير قطعاً نحوها . لقد كان ابن رشيد على دراية تامة بهذا الأمر للدرجة التي صمم معها بأن لا يقدم على أي انسحاب مهما كانت الظروف، ولهذا كان يحتفظ بمسدس وكمية من السم تحت سرجه وتحت مخدته لينهي حياته في لحظة ^(١) .

في أواخر مارس ١٨٩١م قام الأمير في حالة من اليأس ببعض الهجمات الليلية على مواقع عنيزة ، ولكن لم ينتج عنها إلا عدد قليل من القتلى . لقد بدا الآن أن كل شيء لا أمل فيه ألبتة ، عندها تقرر في معسكر حائل القيام بهجوم جديد وأخير ، وأخيراً تم تنفيذ هذا الهجوم . لقد تم تحريك عشرين ألف جمل في يوم واحد من جميع الاتجاهات ضد مشاة عنيزة، فاخترقوهم في العمق ومن الحلف . فقد هؤلاء المشاة عندئذٍ صوابهم عندما تبينوا ما يحدث ، وبدون أن يكبدوا العدو أي أضرار أطلقوا وابلاً من الطلقات من بنادقهم العتيقة التي كان من الصعب إعادة تعبئتها . لقد تم قتل الآلاف من الجمال - وحتى الآن فإن الصحراء مليئة بنفاياتها - ولكن الهدف تم تحقيقه .

لقد عم رعب وذعر هائل وسط قوات عنيزة التي ألقى جنودها بنادقهم القديمة حتى رماحهم ، وولوا هاربين عزلاً عبر السهل المنبسط أمام الفرسان المنتصرين القساة الذين ذبحوهم بالآلاف . حتى بقية الحلف لم يكن حظهم أحسن حالاً . لقد اطمأنوا واثقين من حصانة ومنعة مشاتهم في الوسط ، وكانوا قد حضروا من أجزاء بعيدة من أرض المعركة بعد زمن طويل ، الشيء

(١) لا ندري من أين جاء بهذا الخبر ؛ ومن المحال أن يكون مصدر الخبر محمد بن عبدالله بن رشيد ؛ لأن الانتحار - حال عدم اختلال القدرة العقلية - محرم شرعاً ، مخالف لعادات العرب [الدرعية] .

الذي لم يمكنهم من التدخل الحاسم في النزال . ولما بدا الآن أن الأمر أصبح متأخراً ، قرر الفرسان من الرياض أولاً ، ثم عتيبة ، وجميع الباقين على التوالي ، العودة سريعاً إلى خيامهم ومواقع إمداداتهم ليجمعوا أمرهم ، ويقوموا بانسحاب حذر كل إلى مكانه في الصحراء . لكن لم ينجحوا حتى في ذلك ، حيث إن خيامهم قد دمرت في هذه الأثناء .

هكذا ؛ وبعد ساعات قلائل لم يتبق شيء من الحلف . وفي زمن وجيز تخلى المنهزمون وهم في حالة من الخوف والارتباك عن أية فكرة للهرب ، ووضعوا كل آمالهم في البقاء على قيد الحياة من خلال طلب الرحمة عندما يحضرون أمام الأمير . لقد قُتل الشيخ زامل القائد الأعلى للتحالف مع ابنه الأكبر الذي كان قد حضر من البصرة في اليوم الأول للكارثة بعدما سمع أخبار معركة والده مع حائل بالقرب من بريدة . كما قُتل أيضاً عدد من أمراء بيت الرياض ، والبقية تم أسرهم بواسطة الأمير . في مساء اليوم نفسه استسلمت عنيزة وبريدة لابن رشيد ، وبعد ذلك بوقت وجيز أتى إليه مبعوثون من الرس وشقراء والرياض ليعلموا استسلامهم ، ويطلبوا أمره فيما يتعلق بالوكلاء الذين سيعينهم على مناطقهم .

لقد وقع الشيخ حسن شيخ بريدة الذي حاول الهرب في الصحراء أسيراً بعد عدة ساعات في أيدي الأمير ، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة في حائل . إلى جانب معسكر الحلفاء وما به من آلاف الخيل ، والمؤن فقد سنحت الفرصة لابن رشيد من للاستيلاء على ١٢,٠٠٠ بندقية من النوع العتيق

غنيمة. وبما أنها لم تكن ذات قيمة من الناحية العسكرية مثل بنادق الرصاص؛ فإنها لم تكن تستحق الاحتفاظ بها، ولذلك منحها مع العديد من الغنائم الأخرى إلى حلفائه من قبيلة حرب . لقد قاد هذا العمل في وقت لاحق إلى اتهامه من قبل الأتراك بأنه قام بتسليح قبيلة حرب بأسلحة حديثة ليمارسوا هجماتهم على قوافل الحجاج .

نتيجة لانتصار ابن رشيد خضعت كل أواسط الجزيرة العربية له خضوعاً تاماً ، لقد اختار بريدة بلاط حكم مؤقت له ، ومن هناك قام بتنظيم الأمور كافة وفقاً لرغباته . في تلك الأثناء تمكن عبدالرحمن أحد أبناء آل سعود الأسرى من الهرب بنجاح من معسكر ابن رشيد إلى الرياض ، حيث أعلن نفسه أميراً عليها، وألقى في الوقت ذاته بنواب ابن رشيد الموجودين هناك في السجن ، لكن هذه الواقعة انتهت بالسرعة المأساوية نفسها التي بدأت بها ؛ إذ بعد مسيرة مسلحة من بريدة ظهر ابن رشيد مرة أخرى عند أبواب الرياض التي لا حول ولا قوة لها، والتي كان عليها الاستسلام للمرة الرابعة لرحمة أو غضب هذا العدو ^(١) .

(١) يفهم من كلام صاحب المذكرات في هذه الفقرة والفقرات السابقة ، أن الإمام عبدالرحمن بن فيصل وأتباعه قد حضروا معركة المليدا ، وأن الإمام وقع في الأسر ، وأنه تمكن من الهرب من معسكر ابن رشيد إلى الرياض وقبض على نواب ابن رشيد هناك وسجنهم ، وأن ابن رشيد سار بجيشه من بريدة إلى الرياض، وألجأ الإمام عبدالرحمن إلى الهرب منها، وأحرق نخيلها وسواها بالأرض ؛ والثابت في المصادر المحلية والمعاصرة أن الإمام لم يشترك في المعركة المذكورة ، ولم يكن قريباً منها، ولم يقع في أسر ابن رشيد ؛ ويظهر أنه حدث هنا خلط ما بين حوادث معركة المليدا، وما حدث قبلها وما حدث بعدها مما لم يكن نتيجة مباشرة لها [المعلق] .

التجأ عبدالرحمن إلى الأتراك في الأحساء ، ولكن الرياض دفعت ثمن تقلبها غالباً . لقد أحرقت بلدة الرياض القديمة المحصنة وسويت بالأرض ، وكان على سكانها أن يكدوا بجهد شديد للتغلب على المحنة . كان أسوأ ما تم فعله أن ابن رشيد قطع وأشعل النار في ما لا يقل عن نصف المزروع من أشجار النخيل والمزروعات الأخرى حول الرياض ، وتلك الضربة ستكلف الواحة تعيسة الحظ زمناً طويلاً حتى تتمكن من استعادة عافيتها من المحنة التي حلت بها .

بعد عدة أشهر من الحكم المباشر قام ابن رشيد بتعيين أحد أعضاء أسرة ابن سعود ، وهو الأمير محمد ، وعند سؤاله لماذا فعل ذلك قال لي ابن رشيد : "يجب أن تفهم أن على المرء فعل ما يُعد صحيحاً من الناحية السياسية ، وفي الوقت نفسه مقبولاً في نظر الله . لقد ظل آل سعود لمدة قرن ونصف تقريباً سلاطين في الجزيرة العربية وحتى والذي كان تابعاً لهم ... لقد عانوا بالفعل ما يكفي من الحظ العاثر" .

الخاتمة :

رغم اعتقاد الباحث بأهمية ما قدمه إدوارد نولده ، هذا الرحالة المجهول في أدب الرحلات الغربية حول الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية ، إلا أن ذلك لا يغني عن الاستمرار في البحث عن تلك المرحلة المجهولة من تاريخ شبه الجزيرة العربية ، فمعلومات هذا الرحالة السياسي تسلط الضوء على بعض الأحداث المهمة في تاريخ المنطقة ، وتقود إلى المجادلة حول بعض

المعلومات التي تعدّ حقائق لا تقبل المجادلة، فمعلومات نولده في عدد من جوانبها تناقض ما هو متعارف عليه على أنه حقائق في بعض الكتابات التاريخية والسياسية، وخاصة المتعلقة بأحداث المنطقة خلال تلك الفترة . كما أن تسليط الضوء على هذه المذكرات ، يدعونا إلى أن نلتفت إلى الرحالة الآخرين ، الذين كتبوا باللغات غير الإنجليزية ، وإثارة الاهتمام بما كتبوه ؛ لإمطة اللثام عن حلقات مفقودة أو غير معروفة في عملية البحث عن الحقيقة، التي لا تنتهي أبداً وإثارة النقاش حولها ^(١) .

وأخيراً ؛ للباحثين الحكم على ما جاء به نولده من معلومات ، دون إغفال الحاجة إلى مزيد من البحث عن دوره السياسي المجهول ، واكتشاف حقيقة هدف رحلته وتفاصيل مفاوضاته .

(١) والقائمون على مجلة الدرعية يهيئون بالأستاذين المترجم والمراجع للإدلاج والسري وراء هذه الغاية، ويهيئون بكل ذوي الاختصاص ، وسيجدون من الدرعية - إن شاء الله - منبراً لنشر المقالة والكتاب الضخم على حد سواء في هذا المجال .